الشعرية في النقد العربي المعاصر

حظيت أسئلة الشعرية وقضاياها باهتمام لفيف من النقاد العرب المعاصرين ، وكشف اهتمامهم هذا عن تأثر واضح بالثقافة النقدية الغربية ، كما كشف في الآن نفسه عن بصر الكثيرين منهم بخصوصية الشعر العربي ، والحاجة إلى تمثل شعريته تمثلا لا يذهب بتلك الخصوصية ، وحسبنا في هذه المحاضرة أن نسلط الضوء على ثلاثة من الشعريين العرب ، ناقدين (كمال أبي ديب / عبد الله الغذامي) ، وناقد شاعر (أدونيس) ، وأن نقف على بعض ما أرادوا له أن ينهض من الرؤى والتصورات للمسألة الشعرية .

كمال أبو ديب :

يعد عمل أبي ديب " في الشعرية " مثالا عربيا لافتا للعناية بالقضايا النظرية للشعرية من جهة ، والجهد التطبيقي الذي يرفد ذلك من جهة ثانية عبر تحليل نماذج من الشعر العربي قديمه وحديثه ، وبعض الشعر الغربي .

ويكشف أبو ديب في عمله عن تنوع في المرجعيات التي استند إليها ، وعين القارئ لا تخطئ حتما كيف استقام له أن يستعين بأكثر من تصور نقدي ، ويجمع إلى الأثر الشكلاني والبنيوي (جاكوبسون خصوصا) أثرا أسلوبيا (جان كوهن) ، بل إنه ليعضد ما سبق بالأثر الجمالي ، أثر نظرية التلقي ، ثم إن هذه المصادر الغربية جميعا لم تقطع صلة أبي ديب بتراثنا النقدي ، بدليل الحظوة الجلية التي تهيأت في عمله لنظرية عبد القاهر الجرجاني .

ويعتقد أبو ديب في توجه بنيوي صريح منه أن الشعرية ذات هوية علائقية كلية، أي إنها نتاج السياق الناظم للعناصر ، لا نتاج العناصر بحد ذاتها ، يقول : « إنها تجسد في النص لشبكة من العلاقات التي تنمو بين مكونات أولية سمتها الأساسية

أن كلا منها يمكن أن يقع في سياق آخر دون أن يكون شعريا ، لكنه في السياق الذي تنشأ فيه هذه العلاقات ، وفي حركته المتواشجة مع مكونات أخرى لها السمة الأساسية ذاتها ، يتحول إلى فاعلية خلق للشعرية ، ومؤشر على وجودها » .

هذا الطرح البنيوي المؤكد لجدوى العلاقة وحساسيتها يصل بأبي ديب إلى اعتبار الشعرية وظيفة من وظائف ما يسميه : الفجوة ، الأمر الذي يحيلنا بداهة على أسلوبية الانزياح التي روج لها كوهن ، على أن الانزياح لدى أبي ديب ليس إلا وسيلة لبلورة الفجوة ، بالنظر إلى أن الاستخدام الوضعي القاموسي للكلمات لا ينتج الشعرية ، بل ينتجها قفز الكلمات من وضعها الأولي الثابت إلى حالة جديدة من التحول الدينامي .

ثم إن أبا ديب يخالف كوهن في اعتبار النثر نقيضا للشعر ، وفي قصر الشعرية على الشعر ، والصحيح لديه أن يقابل بين الشعر واللاشعر ، وأن ترصد الشعرية في الأدب جملته .

هذا ولا يذكر أبو ديب مصطلح الفجوة مستقلا ، بل يعمد إلى إتباعه بمصطلح ثان يعضده (الفجوة : مسافة التوتر) ، وذلك سبيل الشعرية في نظره ، إذ من شأن الفجوة أن تمثل البوتقة أو الفضاء الذي يتيح لغير المتجانس من العناصر أن يؤول إلى صهارة متجانسة ، وأن تنتج مسافة التوتر ، تلك التي تصل بين واقع النص ومتوقع القارئ .

هذا الطرح يكشف بوضوح عن تأثر أبي ديب بالمعطى الجمالي الذي مكنت له نظرية التلقي من خلال التأكيد على فاعلية الفجوات أو البياضات كما يسميها إيزر ، ودورها الحساس في بناء الجمالية ، جمالية تزداد في نظر ياوس كلما زادت المسافة بين ما يأتي به النص وما ينتظره القارئ .

عبد الله الغذامي :

ذكرنا من قبل أن الغذامي آثر مصطلح الشاعرية بديلا من مصطلح الشعرية ، وحجته في ذلك لصوق هذا الأخير بنطاق الشعر وإحالته الشديدة عليه ، في المقابل آنس الغذامي في المصطلح البديل عوضا كفيلا بتخطي إشكال النوع والاتساع للخطاب الأدبي بكليته .

هذا ويصدر الغذامي في فهمه للشاعرية عن تصور اختلافي شديد التأثر بالأطاريح السيميائية لرولان بارت أو فارس النص كما يسميه ، وطبيعي والحال كذلك أن يتجه الغذامي إلى التركيز على سمة الانفتاح ، وعدها مكمنا لشاعرية النص ، شاعرية قوامها الإمكان الذي تقارب احتمالاته ، ولا يدرك على وجه التحديد .

ولا شك في أن الحديث عن انفتاح النص ، وتحوله من المعنى الأحادي المدرك إلى الدلالة الرحبة المنفلتة ، يؤكد أن الشاعرية لدى الغذامي لا تنعقد إلا بتوثيق الصلة بين القطبين : الفني أي النص ، والجمالي أي القارئ ، والتمكين للقراءة من حيث هي نشاط دينامي منتج ، لا عادة نمطية استهلاكية ، إنها تسهم في تثوير كمون النص ، وتتيح له متنفسا متجددا بتجدد فعل القراءة وتعدد ذوات القراء .

إن الشاعرية كما فهمها الغذامي تقتضي تجاوز المعنى الذي يفسر إلى الدلالة التي تؤول ، إلى معنى المعنى ، إلى المخبوءات التي تستوحى ، والممكنات الشاردات اللاتي يسهر الخلق جراها ويختصم ، إذ ليس من شأن الشعر أن يجعل دواله محيلة على مدلولاته إحالة مباشرة ، بل شأنه أن يجعل الدوال مغرية في تمنع ، تنفسح للقراءة والقراءة الأخرى ، بل القراءات الأخريات .

يقول الغذامي معولا على فاعلية القراءة ، ومؤكدا في الوقت نفسه ما لشاعرية النص من فتنة : « الشعراء يسرقون لغتنا ومشاعرنا وأحاسيسنا ، ليصوغوها شعرا بيانيا يسرقون به ما تبقى لنا من أخيلتنا ، وليس لنا إلا أن نسترد حقنا من سارقه ، فنحول النص إلينا عن طريق القراءة » .

أدونيس :

لهذا الشعري العربي حضور قوي ولافت ، حتى وإن أثار مشروعه الحداثي التثويري كثيرا من ردود الفعل المناوئة والرافضة ، وأيا يكن الأمر فإن عين القارئ لا تخطئ الاهتمام الخاص والواسع لأدونيس بأسئلة الشعرية العربية وقضاياها في مؤلفاته الكثيرة (زمن الشعر ، سياسة الشعر ، الشعرية العربية ، مقدمة للشعر العربي ، الثابت والمتحول ...) ، اهتمام أريد له أن يبشر بمشروع مغاير في التنظير للشعر وحداثته ، وفي تمثل طبيعته ودوره .

إن الشعر كما تمثله أدونيس ليس معنيا بمحاكاة الواقع ، أو توثيقه ، أو تفسيره أو تحديده ، أو تسمية أشيائه بأسمائها ، أو عكس أسطحه كما تفعل المرآة ، كل هذا يقع خارج الشعر ، والصحيح في نظره أن القصيدة «تشمل الواقع و تتجاوزه ، إنها تحتضن الواقع والممكن ، وكل شيء يحتضنه الواقع ويستنفده لا يكون أكثر من وثيقة ، لا يكون شعرا » .

على الشعر إذن أن يتجاوز الواقع فيما هو يحتضنه ، والعلاقة بين الشعر والواقع أو الحياة في تصور أدونيس « تشبه العلاقة بين الوردة و رائحتها ، الوردة مشروطة بالتربة والمناخ وغير ذلك من الشروط المادية ، لكن الرائحة شيء آخر ، تخضع لهذه الشروط وتتخطاها ، فهي في آن منها وليس منها » .

من أجل هذا لم يكن الشعر ليقاس بواقعيته ، بل بشعريته ، ذلك بأن «اللغة هي التي تحول الواقع إلى شعر ، لا الواقع هو الذي يحول اللغة إلى شعر» ، وهذا يعني أن أهم ما في الشعر طاقته التحويلية التي تأبى أن تعيد إلينا العالم في صورته الخام ، وتعول بالأساس على تجاوز الجاهز ومغايرة السائد .

وإذن فالتجاوز سر الشعرية ، بل إن أدونيس يوغل في هذا المنحى من الفهم حين يصف الإبداع الشعري بأنه نفي يتقدم ، في إشارة منه إلى أن الشعر ينبغي أن يربك المتلقي ويهزه ، لا أن يهادنه ويسترضيه .

ولا يكون الشعر اختلافا ما لم يكن رؤيا ، لذلك ارتبطت الشعرية لدى أدونيس بالرؤيا ارتباطا وثيقا ، ويميز أدونيس بين الرؤية والرؤيا : أما الأولى فحسية وصفية ترى الشيء ثابتا على صورة واحدة لا تتغير ، وأما الثانية فقلبية كشفية ترى الأشياء متحولة لا تستقر على حال .

ثم إن الرؤيا كما فهمها أدونيس عابرة للزمان والمكان ، تشتغل خارج الترتيبات الحتمية التي يفرضانها ، وخارج حتمية السببية أيضا ، إذ إنها «لا تجيء وفقا لمقولة السبب والنتيجة ، وإنما تأتي بلا سبب ، في شكل خاطف مفاجئ ، أو تجيء إشراقا» .

إنها استبصار حر ، أوهي بتعبير أدونيس «قفزة خارج المفهومات السائدة ، هي إذن تغيير في نظام الأشياء ، وفي نظام النظر إليها» ، وهذا يعني أن القصيدة الرؤيا معنية بإنتاج واقع بديل ، لا ترديد الواقع المعطى .

وليس لقصيدة من مجد أو عظمة ما لم تؤسس لرؤياها الخاصة المتفردة ، على أن سؤال الرؤيا لا يتحرك بمنأى عن سؤال اللغة ، فالرؤيا تستنبت باللغة ، « وسؤالنا ماذا رأى ؟ مترابط مع سؤال آخر هو كيف رأى ؟» ، والمعنى هنا أن الشعرية لا تتأسس باللغة المسطحة ، بل لا بد أن تتهيأ لها لغتها الخاصة ، لغة الكشف والاستبطان والتأمل العميق .

ينظر الآتي من مراجع المادة :

ـ كمال أبو ديب ، في الشعرية

ـ عبد الله الغذامي ، الخطيئة والتكفير

ـ أدونيس ، مقدمة للشعر العربي / زمن الشعر / سياسة الشعر / الشعرية العربية / كلام البدايات / الثابت والمتحول

ـ فاتح علاق ، مفهوم الشعر عند رواد الشعر العربي الحر

ـ حسن البنا عز الدين ، الشعرية والثقافة

ـ عبد الله العشي ، أسئلة الشعرية